

تفسير سورة لقمان

وهي مكة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿الذِّكْرِ﴾ تِلْكَ مَآثِرُ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ
الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٤﴾

تقدم في أول سورة « البقرة » عامة الكلام على ما يتعلق بصدر هذه السورة ، وهو أنه تعالى جعل
هذا القرآن هدى وشفاء ورحمة للمحسنين ، وهم الذين أحسنوا العمل في اتباع الشريعة ، فأقاموا الصلاة
المفروضة بحدودها وأوقاتها ، وما يتبعها من نوافل راتبة وغير راتبة ، وآتوا الزكاة المفروضة عليهم إلى
مستحقها ، ووصلوا قراباتهم وأرحامهم ، وأيقنوا بالجزاء في الدار الآخرة ، فرغبوا إلى الله في ثواب
ذلك ، لم يراؤوا به ولا أرادوا جزاءه من الناس ولا شكورا ، فمن فعل ذلك كذلك فهو من الذين قال
الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ أى : على بصيرة وبينة ومنهج واضح وجلى ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾
أى : في الدنيا والآخرة .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ ﴿٥﴾ وَإِذَا نُنْتَلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنَّا مُسْتَكْبِرِينَ كَانَتْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَسَّرَهُ بَعْدَآبِ
الْيَمِينِ ﴿٦﴾

لما ذكر تعالى حال السعداء ، وهم الذين يهتدون بكتاب الله ويتفهمون بسماعه ، كما قال تعالى :
﴿ وَاللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُثَابَهَا مَثَابِي نَفْسُهُمْ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبَهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾
الآية [الزمر : ٢٣] ، عطف بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماع كلام الله ، وأقبلوا
على استماع المزامير والغناء بالالحن والآلات الطرب ، كما روى عن أبي الصهباة البكرى ، أنه سمع
عبد الله بن مسعود - وهو يسأل عن هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ -
فقال عبد الله : الغناء ، والله الذى لا إله إلا هو ، يرددها ثلاث مرات . وكذا قال ابن عباس ، وجابر ،
وعكرمة ، وسعيد بن جبير ، ومجاهد ، ومكحول ، وعمرو بن شعيب . وقال الحسن البصرى :
أنزلت هذه الآية : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ فى الغناء والمزامير . وقال
قتادة : قوله : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ : والله لعله لا يتفق فيه
مالا ، ولكن شراؤه استحبابه ، بحسب المرء من الضلالة أن يختار حديث الباطل على حديث الحق ،
وما يضر على ما ينفع . وقيل : عنى بقوله : ﴿ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ : اشتراء المغنيات من الجوارى .
وقال الضحاک فى قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ ﴾ يعنى : الشرك . وبه قال عبد الرحمن
ابن زيد بن أسلم ؛ واختار ابن جرير أنه كل كلام يصد عن آيات الله واتباع سبيله .

وقوله : ﴿ لِيُجِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أى : إنما يصنع هذا للتخالف للإسلام وأهله ﴿ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ﴾ قال مجاهد : ويتخذ سبيل الله هزوا ، يستهزئ بها ، وقال قتادة : يعنى : ويتخذ آيات الله هزوا . وقول مجاهد أولى .

وقوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ أى : كما استهانوا بآيات الله وسبيله ، أهينوا يوم القيامة فى العذاب الدائم المستمر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا تَلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَكُنِيَ مُسْتَكْبِرًا كَانَ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ قِرْفًا ﴾ أى : هذا المقبل على اللهو واللعب والطرب ، إذا تليت عليه الآيات القرآنية ، ولى عنها وأعرض وأدبر وتَصَامَمَ وما به من صَمَمٍ ، كأنه ما يسمعا ؛ لانه يتأذى بسماعها ، إذ لا انتفاع له بها ، ولا أرب له فيها ﴿ فَنُفِثَتْ بِعَذَابِ الْجَهَنَّمَ ﴾ أى : يوم القيامة يؤله ، كما تألم بسماع كتاب الله وآياته .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿١٠﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١﴾ ﴾

هذا ذكر مآل الأبرار من السعداء فى الدار الآخرة ، الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين ، وعملوا الاعمال الصالحة التابعة لشريعة الله ﴿ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴾ أى : يتنعمون فيها بأنواع الملاذ والمسار ، من المآكل والمشرب ، والملابس والمساكن ، والمراكب والنساء ، والنضرة والسماع الذى لم يخطر ببال أحد ، وهم فى ذلك مقيمون دائما فيها ، لا يظعنون ولا ييغون عنها حولا .

وقوله : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا ﴾ أى : هذا كائن لا محالة ؛ لانه من وعد الله ، والله لا يخلف الميعاد ؛ لانه الكريم المنان ، الفعال لما يشاء ، القادر على كل شيء ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ ﴾ الذى قد فهر كل شيء ، ودان له كل شيء ﴿ الْحَكِيمُ ﴾ فى أقواله وأفعاله ، الذى جعل القرآن هدى للمؤمنين ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي آمَنُوا هُدًى وَشَفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ﴾ [فصلت : ٤٤] ، ﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شَفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِمِثْرِ عَمَدٍ رُّوْسَهَا وَالْقَمَىٰ فِي الْأَرْضِ رُوْسَىٰ أَنْ نَعْبُدَ بِكُمْ مِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرْوِفُ سَاذًا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ . بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ ﴾

بين سبحانه بهذا قدرته العظيمة على خلق السموات والأرض ، وما فيها وما بينهما ، فقال : ﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِمِثْرِ عَمَدٍ ﴾ قال الحسن وقتادة : ليس لها عمد مرئية ولا غير مرئية ﴿ وَالْقَمَىٰ فِي الْأَرْضِ رُوْسَىٰ ﴾ أى : الجبال أرسى الأرض ونقلتها لثلا تضطرب بأهلها على وجه الماء ، ولهذا قال : ﴿ أَنْ نَعْبُدَ بِكُمْ ﴾ أى : لثلا نعبد بكم ﴿ وَبِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ أى : وذرا فيها من أصناف الحيوانات عما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذى خلقها .

ولما قرر أنه الخالق نبه على أنه الرازق بقوله تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ أى : من كل زوج من النبات كريم ، أى : حسن المنظر . وقال الشعبي : والناس - أيضا - من نبات

الأرض ، فمن دخل الجنة فهو كريم ، ومن دخل النار فهو لثيم .

وقوله : ﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ ﴾ أى : هذا الذى ذكره تعالى من خلق السموات والأرض وما بينهما ، صادر عن فعل الله وخلقته وتقديره ، وحده لا شريك له فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ قَارُونِ مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ أى : بما تعبدون وتدعون من الأصنام والأنداد ﴿ بَلِ الظَّالِمُونَ ﴾ يعنى : المشركين بالله العابدين معه غيره ﴿ فِي ضَلَالٍ ﴾ أى : جهل وعمى ﴿ مَبِينٍ ﴾ أى : واضح ظاهر لا خفاء به .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ

حَمِيدٌ ﴾

اختلف السلف فى لقمان : هل كان نبياً ، أو عبداً صالحاً من غير نبوة ؟ على قولين ، الاكثرون على الثانى . وعن ابن عباس قال : كان لقمان عبداً حبشياً نجاراً . وعن عبد الله بن الزبير ، قلت لجابر ابن عبد الله : ما انتهى إليكم من شأن لقمان ؟ قال : كان قصيراً أفطس من النبوة . ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً ، وإنما يتقل كونه نبياً عن عكرمة - إن صح السند إليه ، فإنه رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم من حديث وكيع ، عن إسرائيل ، عن جابر ، عن عكرمة فقال : كان لقمان نبياً . وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ، وهو ضعيف ، والله أعلم . والذى رواه سعيد بن أبى عروة ، عن قتادة ، فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفقه فى الإسلام ، ولم يكن نبياً ، ولم يوح إليه .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ أى : الفهم والعلم والتعمير ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ أى : أمرناه أن يشكر الله ، عز وجل ، على ما آتاه الله ومنحه ووهبه من الفضل ، الذى خصه به عن سواه من أبناء جنسه وأهل زمانه . ثم قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ﴾ أى : إنما يعود نفع ذلك وثوابه على الشاكرين لقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم : ٤٤] .

وقوله : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴾ أى : غنى عن العباد ، لا يتضرر بذلك ، ولو كفر أهل الأرض كلهم جميعاً ، فإنه الغنى عما سواه ؛ فلا إله إلا الله ، ولا نعبد إلا إياه .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبْنَيْهِ وَهُوَ يَعُظُهُ يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِضْلُهُمْ فِي عَامِلِينَ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَرْبَتِي مَرْجِعَكُمْ فَأُنشِرُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن وصية لقمان لولده - وقد ذكره تعالى بأحسن الذكر ، فإنه آتاه الحكمة ، وهو يوصى ولده الذى هو أشفق الناس عليه وأحبهم إليه ، فهو حقيق أن يمنحه أفضل ما يعرف ؛ ولهذا أوصاه أولاً بأن يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً ، ثم قال محذراً له : ﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : هو أعظم الظلم . روى البخارى عن عبد الله [بن مسعود] قال : لما نزلت : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ

يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بَظُلْمٍ ﴿ [الانعام: ٨٢] ، شق ذلك على اصحاب رسول الله ﷺ ، وقالوا : اينما لم يلبس
إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله ﷺ : «انه ليس بذلك ، الا تسمع إلى قول لقمان : ﴿ يَا بَنِيَّ لَا تُشْرِكْ
بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ . ورواه مسلم من حديث الأعمش ، به (١) .

ثم قرآن بوصيته إياه بعبادة الله وحده البر بالوالدين ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تُعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] . وكثيرا ما يقرن تعالى بين ذلك في القرآن وقال ههنا : ﴿ وَوَصَّيْنَا
الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَىٰ وَهْنٍ ﴾ قال مجاهد : مشقة وهن الولد . وقال قتادة : جهداً على جهد .
وقال عطاء الخراساني : ضعفا على ضعف .

وقوله : ﴿ وَوَصَّيْنَا لِرِجَالِكُمُ الْغَنَاءَ ﴾ أي : تربيته وإرضاعه بعد وضعه في عامين ، كما قال تعالى :
﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْجَعْنَ أولَادَهُنَّ حَوْلَيْنَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنْفِقَ الرِّضَاعَةَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] . ومن ههنا استنبط ابن
عباس وغيره من الاثمة أن أقل مدة الحمل ستة أشهر ؛ لانه قال تعالى في الآية الأخرى : ﴿ وَحَمَلُهُ
وَإِصْلَافُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ﴾ [الاحقاف : ١٥] . وإنما يذكر تعالى تربية الوالدة وتعبها ومشقتها في سهرها ليلاً
ونهاراً ، ليذكر الولد بإحسانها المتقدم إليه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْنِيمَا كَمَا رَحِمْتَنِي صَغِيرًا ﴾
[الإسراء : ٢٤] ؛ ولهذا قال : ﴿ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ أي : فإني سأجزيك على ذلك أوفر
الجزاء .

وقوله : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا نَسَىٰ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ أي : إن حرصاً عليك كل
الحرص على أن تتابعهما على دينهما ، فلا تقبل منهما ذلك ، ولا يمتنعك ذلك من أن تصاحبهما في
الدنيا معروفاً ، أي : محسناً إليهما ﴿ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ﴾ يعني : المؤمنين ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ
بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ . روى الطبراني في كتاب العشرة : أن سعد بن مالك قال : أنزلت في هذه الآية :
﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا نَسَىٰ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ﴾ الآية ، وقال : كنت رجلاً برأ بأمي ، فلما
أسلمت قالت : يا سعد ، ما هذا الذي أراك قد أحدثت ؟ لتدعن دينك هذا أو لا أكل ولا اشرب
حتى أموت ، فتعير بي ، فيقال : «ياقاتل أمه» . فقلت : لا تفعلوا يا أمه ، فإني لا ادع ديني هذا
لشيء . فمكثت يوماً وليلة لم تأكل فأصبحت قد جهدت ، فمكثت يوماً وليلة أخرى لا تأكل ،
فأصبحت قد اشتد جهدها ، فلما رأيت ذلك قلت : يا أمه ، تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس
فخرجت نفساً نفساً ، ما تركت ديني هذا لشيء ، فإن شئت فكلتي ، وإن شئت لا تأكلتي . فأكلت .

﴿ يَسْتَقْبِلُهَا إِنْ تَكُ وَتُقَالُ حَبْرٌ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ
يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿ يَسْتَقْبِلُ أَعْيُنَ الْمَكَلُوفِ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمَسْكِرِ وَأَصِيرٌ
عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ عَرْمِ الْأُمُورِ ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا إِنَّ اللَّهَ
لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿ وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ
الْحَمِيرِ ﴿

هذه وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ؛ ليمثلها الناس ويقتدوا بها ، فقال : **﴿ يَا بَنِيَّ إِنِّي إِنَّمَا نَذَرْتُ لَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خُرْدٍ ۖ أَيُّ : إِنْ الْمَظْلَمَةَ أَوْ الْخَطِيئَةَ لَوْ كَانَتْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ خُرْدٍ ۖ يَا بَنِيَّ إِنَّمَا نَذَرْتُ لَكَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خُرْدٍ ۖ أَيُّ : أَحْضَرَهَا اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُضَعُّ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ، وَجَارَى عَلَيْهَا إِنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ ، وَإِنْ شَرًّا فَشَرٌّ . كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خُرْدٍ أَتَيْنَاهَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] ، وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لِمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة : ٧ ، ٨] ، وَلَوْ كَانَتْ تِلْكَ اللَّيْلَةُ مُحَصَّنَةً مُحَجَّبَةً فِي دَاخِلِ صَخْرَةٍ صَمَاءً ، أَوْ غَائِبَةً ذَاهِبَةً فِي أَرْجَاءِ السَّمَوَاتِ أَوْ الْأَرْضِ ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِهَا ؛ لِأَنَّهُ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ خَافِيَةٌ ، وَلَا يَعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ أَيُّ : لَطِيفُ الْعِلْمِ ، فَلَا تَخْفَى عَلَيْهِ الْأَشْيَاءُ وَإِنْ دَقَّتْ وَلَطَفَتْ وَتَضَاعَلَتْ ، ﴿ خَبِيرٌ ﴾ بِدَيْبِ النَّمْلِ فِي اللَّيْلِ الْبَهِيمِ .**

ثم قال : **﴿ يَا بَنِيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ ﴾** أَيُّ : بِحُدُودِهَا وَفُرُوضِهَا وَأَوْقَاتِهَا **﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾** أَيُّ : بِحَسَبِ طَاقَتِكَ وَجَهْدِكَ **﴿ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ﴾** عِلْمٌ أَنَّ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، لَا يَدُورُ إِلَّا بِالنَّاسِ مِنْ الْأَمْرِ ، فَامْرُءٌ بِالصَّبْرِ **﴿ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾** أَيُّ : إِنَّ الصَّبْرَ عَلَى أَذَى النَّاسِ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ .

وقوله : **﴿ وَلَا تَصْغُرْ خَدُوكَ لِلنَّاسِ ﴾** يَقُولُ : لَا تُعْرِضْ بَوَجْهِكَ عَنِ النَّاسِ إِذَا كَلِمَتُهُمْ أَوْ كَلِمُوكَ ، احْتِقَارًا مِنْكَ لَهُمْ ، وَاسْتِكْبَارًا عَلَيْهِمْ وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ جَانِكُ ، وَابْسُطْ وَجْهَكَ إِلَيْهِمْ ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ : « وَلَوْ أَنَّ تَلْفَى أَخَاكَ وَوَجْهَكَ إِلَيْهِ مُبْسُطٌ ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِرَارِ فَإِنَّهَا مِنَ الْمَخِيلَةِ ، وَالْمَخِيلَةُ لَا يُحِبُّهَا اللَّهُ » . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ : **﴿ وَلَا تَصْغُرْ خَدُوكَ لِلنَّاسِ ﴾** يَقُولُ : لَا تَتَكَبَّرْ فَتُحَقِّرْ عِبَادَ اللَّهِ ، وَتُعْرِضَ عَنْهُمْ بَوَجْهِكَ إِذَا كَلِمُوكَ . وَكَذَا رَوَى الْعَوْفِيُّ وَعِكْرِمَةُ عَنْهُ . وَقَالَ مَالِكٌ ، عَنْ رِيَدِ بْنِ أَسْلَمَ : **﴿ وَلَا تَصْغُرْ خَدُوكَ لِلنَّاسِ ﴾** : لَا تَكَلِّمْ وَأَنْتَ مُعْرِضٌ . وَكَذَا رَوَى عَنْ مُجَاهِدٍ ، وَعِكْرِمَةَ ، وَيزِيدُ بْنُ الْأَصَمِّ ، وَأَبِي الْجَوْزَاءِ ، وَمَعِيدُ بْنُ جَبْرِ ، وَالضَّحَّاكُ ، وَابْنُ يَزِيدَ ، وَغَيْرُهُمْ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ : يَعْنِي بِذَلِكَ : التَّشْدِيدُ فِي الْكَلَامِ . وَالصَّوَابُ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ . قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : وَأَصْلُ الصَّعْرُ : دَاهٌ يَأْخُذُ الْإِبِلَ فِي أَعْنَاقِهَا أَوْ رُؤُوسِهَا ، حَتَّى تُلْفَتَ أَعْنَاقُهَا عَنْ رُؤُوسِهَا ، فَشَبَّهَ بِهِ الرَّجُلَ الْمُتَكَبِّرَ .

وقوله : **﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا ﴾** أَيُّ : جِدَلًا مُتَكَبِّرًا جَارًا عَنِيدًا ، لَا تَفْعَلْ ذَلِكَ بِيَغْضَاكَ اللَّهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : **﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾** أَيُّ : مُخْتَالٌ مُعْجَبٌ فِي نَفْسِهِ ، فَخُورٌ : أَيُّ عَلَى غَيْرِهِ .
وقوله : **﴿ وَأَقْبِدْ فِي مَشْيِكَ ﴾** أَيُّ : امْشِ مَشْيًا مُقْتَصِدًا لَيْسَ بِالْبَطْءِ الْمَشْطِ ، وَلَا بِالسَّرْعِ الْمَقْرَطِ ، بَلْ عَدْلًا وَسَطًا بَيْنَ بَيْنِ .

وقوله : **﴿ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ﴾** أَيُّ : لَا تَبَالِغْ فِي الْكَلَامِ ، وَلَا تَرْفَعْ صَوْتَكَ فِيمَا لَا فَائِدَةَ فِيهِ ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى : **﴿ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾** قَالَ مُجَاهِدٌ وَغَيْرُ وَاحِدٍ : إِنَّ أَقْبَحَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ، أَيُّ : غَايَةُ مَنْ رَفَعَ صَوْتَهُ أَنَّهُ يُشَبَّهُ بِالْحَمِيرِ فِي عُلُوِّهِ وَرَفَعِهِ ، وَمَعَ هَذَا هُوَ بَغِيضٌ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى . وَهَذَا التَّشْبِيهُ فِي هَذَا بِالْحَمِيرِ يَمْتَنِعُ تَحْرِيمَهُ وَذَمَّهُ غَايَةَ الذَّمِّ ؛ لِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَيْسَ لَنَا مِثْلُ السَّوِّءِ ، الْعَائِدُ فِي هَبْتِهِ كَالْكَلْبِ يَقْبَهُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ » (١) . وَرَوَى النَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ،

عن النبي ﷺ قال : « إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأيت شيطانا ». وقد أخرجه بقية الجماعة سوى ابن ماجه (١) وفي بعض الألفاظ : « بالليل » ، فالله أعلم .

فهذه وصايا نافعة جداً ، وهي من قصص القرآن العظيم عن لقمان الحكيم . وقد روى عنه من الحكم والمواعظ أشياء كثيرة . روى الإمام أحمد عن ابن عمر ، قال : أخبرنا رسول الله ﷺ قال : « إن لقمان الحكيم كان يقول : إن الله إذا استودع شيئا حفظه » (٢) . وروى ابن أبي حاتم عن أبي موسى الأشعري ، أن رسول الله ﷺ قال : « قال لقمان لابنه وهو يعظه : يا بني ، إياك والتفخ فإنه مخوفة بالليل ، مذلة بالنهار » (٣) .

﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنَةُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿١﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلًا كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢﴾ ﴾

يقول تعالى منها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة ، بأنه سخر لهم ما في السموات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم ، وما يخلق فيها من سحب وأمطار وتلج وبرد ، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا ، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار . وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب ، وإزاحة الشبه والعلل ، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم ، بل منهم من يجادل في الله ، أي : في توحيد وإرسال الرسل ، ومجادلته في ذلك بغير علم ، ولا مستند من حجة صحيحة ، ولا كتاب ماثور صحيح ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾ أي : مبين يضيء . ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾ أي : لهؤلاء المجادلين في توحيد الله : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي : على رسوله من الشرائع المطهرة ﴿ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ أي : لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الاقدمين ، قال الله : ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٠] أي . فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم ، أنهم كانوا على ضلالة وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه ؛ ولهذا قال : ﴿ أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٣﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُمْ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ نَعْتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥﴾ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن أسلم وجهه لله ، أي : اخلص له العمل وانقاد لامره واتبع شرعه ؛ ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ أي : في عمله ، باتباع ما به أمر ، وترك ما عنه زجر ﴿ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ أي : فقد أخذ موثقا من الله متيناً أنه لا يعذبه ﴿ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ . وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزَنكَ كُفْرُهُ ﴾

(١) النسائي في الكبرى (١١٣٩١) والبخاري (٣٣٠١) ومسلم (٢٧٢٩ / ٨٢) وأبو داود (٥١٠٢) .

(٢) المسند (٥٦٠٥ ، ٥٦٠٦) وقال الشيخ شاكر : « إسناده صحيح » .

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٤١١ / ٢) وقال : « هذا من شاهد إسناده صحيح » ووافقه الذهبي .

أى : لا تحزن يا محمد عليهم فى كفرهم بالله وبما جنت به ؛ فإن قدر الله نافذ فيهم ، إلى الله مرجعهم فينتهم بما عملوا ، أى : فيجزئهم عليه ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ فلا تخفى عليه خافية .
ثم قال : ﴿ نَعْتَهُمْ قَلِيلًا ﴾ أى : فى الدنيا ، ﴿ ثُمَّ نَنْظُرُهُمْ ﴾ أى : نلجئهم ﴿ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أى : فطبع صعب مشق على النفوس ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يَفْلِحُونَ . مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ [يونس : ٦٩ ، ٧٠] .

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿﴾

يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء المشركين به : إنهم يعرفون أن الله خالق السموات والارض ، وحده لا شريك له ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون انها خلق له وملك له ؛ ولهذا قال : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ أى : إذ قامت عليكم الحججة باعترافكم ، ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ . ثم قال : ﴿ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى : هو خلقه وملكه ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ أى : العنى عما سواه ، وكل شيء فقير إليه ، الحميد فى جميع ما خلق ، له الحمد فى السموات والارض على ما خلق وشرع ، وهو المحمود فى الامور كلها .

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةَ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُبُكُمْ إِلَّا كَفَفْتُمْ وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿﴾

يقول تعالى مخبراً عن عظمته وكبرياته وجلاله ، وأسمائه الحسنی وصفاته العلا وكلماته التامة التى لا يحيط بها أحد ، ولا اطلاع لبشر على كنهها وإحصائها ، فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ أى : ولو أن جميع اشجار الارض جعلت أقلاما ، وجعل البحر مداً ومدة سبعة أبحر معه ، فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمته وصفاته وجلاله لتكسرت الأقلام ، ونفذ ماء البحر ، ولو جاء أمثالها مداً . وإنما ذكرت « السبعة » على وجه المبالغة ، ولم يرد الحصر . وقال الحسن البصرى : لو جعل شجر الارض أقلاما ، وجعل البحر مداً ، وقال الله : « إن من أمرى كذا ، ومن أمرى كذا » لنفذ ما فى البحور ، وتكسرت الأقلام . وقال قتادة : قال المشركون : إنما هذا كلام يوشك أن ينفذ ، فقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ﴾ أى : لو كان شجر الارض أقلاما ، ومع البحر سبعة أبحر ، ما كان لتنفذ عجائب ربه وحكمته وخلقته وعلمه . وقال الربيع بن أنس : إن مثل علم العباد كلهم فى علم الله كقطرة من ماء البحور كلها ، وقد أنزل الله ذلك : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ ﴾ الآية ، يقول : لو كان ذلك البحر مداً لكلمات الله والأشجار كلها أقلاما ، لا تكسرت الأقلام ، وفى ماء البحر ، وبقيت كلمات الله قائمة لا يفنىها شيء ؛ لأن أحدا لا يستطيع أن يقدر قدره ، ولا ينشئ عليه كما ينشئ ، حتى يكون هو الذى ينشئ على نفسه . إن ربنا كما يقول ، وفوق ما نقول .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ أى : عزيز قد عز كل شيء وقهره وغلبه ، فلا مانع لما أراد ولا مخالف ولا معقب لحكمه ﴿ حَكِيمٌ ﴾ فى خلقه وأمره ، وأقواله وأفعاله ، وشرعه وجميع شؤونه . وقوله :

﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِحُكْمِكُمْ إِلَّا تَكْفِيرًا وَاحِدَةً ﴾ أى : ما خلقُ جميعَ الناسِ ويعتقهم يومَ المعادِ بالنسبةِ إلى قدرتهِ إلا كنسبةِ خلقِ نفسٍ واحدةٍ ، الجميعُ حينَ عليه ﴿ وَإِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ، ﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَفِيفَةٌ بِالْبَصْرِ ﴾ [القمر : ٥٠] أى : لا يأمرُ بالشىءِ إلا مرةً واحدةً ، فيكونُ ذلكَ الشىءِ لا يحتاجُ إلى تكررهِ وتوكدهِ ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ [النازعات : ١٣ ، ١٤] . وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ أى : كما هو سميعٌ لا قوا لهم بصيرٍ بأفعالهم كسمعهِ وبصرهِ بالنسبةِ إلى نفسٍ واحدةٍ كذلكَ قدرتهِ على نفسٍ واحدةٍ ؛ ولهذا قال : ﴿ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِحُكْمِكُمْ إِلَّا تَكْفِيرًا وَاحِدَةً . إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَضَلُّ مَنْ يَشَاءُ . وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يخبر تبارك وتعالى أنه ﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ ﴾ يعنى : يأخذ منه فى النهار ، فيطولُ ذاكَ ويقصرُ هذا ، وهذا يكونُ زمنَ الصيفِ يطولُ النهارُ إلى الغايةِ ، ثم يشرعُ فى النقصِ فيطولُ الليلُ ويقصرُ النهارُ ، وهذا يكونُ فى الشتاءِ ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلَّ يَوْمٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ قيل : إلى غايةٍ محدودةٍ . وقيل : إلى يومِ القيامةِ . وكلا المعنيين صحيح .

وقوله : ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ كقوله : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الحج : ٧٠] . ومعنى هذا : أنه تعالى الخالقُ العالمُ بجميعِ الأشياءِ ، كقوله : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق : ١٢] .

وقوله : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ أى : إنما يظهرُ لكم آياته لتستدلوا بها على أنه الحق ، أى : الموجود الحق ، الإله الحق ، وأن كل ما سواه باطل ، فإنه الغنى عما سواه ، وكل شىء فقير إليه ؛ لأن كل ما فى السموات والأرض جميع خلقه وعبيده ، لا يقدر أحد منهم على تحريك ذرةٍ إلا بإذنه ، ولو اجتمع كل أهل الأرض على أن يخلقوا ذباباً لعجزوا عن ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ بَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ أى : العلى الذى لا أعلى منه ، الكبير : الذى هو أكبر من كل شىء ، فكل شىء خاضعٌ حقيرٌ بالنسبةِ إليه .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيكَ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلُمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿

يخبر تعالى أنه هو الذى سَخَّرَ البحرَ لتجرى فيه الفلكُ بأمره ، أى : بلفظهِ وتسخيرهِ ؛ فإنه لولا ما جعل فى الماءِ من قوةٍ يحملُ بها السفنُ لما جرت ؛ ولهذا قال : ﴿ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ ﴾ أى : من قدرتهِ ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : صبارٍ فى الضراء ، شكورٍ فى الرخاء . ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ ﴾ أى : كالجبالِ والغمامِ ﴿ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ

الضُرْفُ فِي الْبَحْرِ ضَلُّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ ﴿ [الإسراء : ٦٧] ، وقال : ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] .

ثم قال : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ﴾ قال مجاهد : أى كافر . كأنه فسر المقتصد ههنا بالجاحد ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت : ٦٥] . وقال ابن زيد : هو المتوسط فى العمل . وهذا الذى قاله ابن زيد هو المراد فى قوله : ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ﴾ [فاطر : ٣٢] ، فالمقتصد ههنا هو : المتوسط فى العمل . ويحتمل أن يكون مراداً هنا أيضاً ، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال والأمور العظام والآيات الباهرات فى البحر ، ثم بعد ما أنعم الله عليه من الخلاص ، كان ينبغى أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والدؤوب فى العبادة ، والمبادرة إلى الخيرات . فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه ، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾ : فالخَتَّارُ : هو العَدَّارُ ، وهو الذى كلما عاهد نقض عهده ، والخَتْرُ : أتم الغدر وأبلغه ﴿ كَفُورٌ ﴾ : أى : جحود للنعم لا يشكرها ، بل يتناساها ولا يذكرها .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَانٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا

إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴿ [النساء : ١٢٠] ﴾

يقول تعالى منذرا للناس يوم المعاد ، وأمرهم بتقواه والخوف منه ، والخشية من يوم القيامة حيث ﴿ لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ﴾ : أى : لو أراد أن يفديه بنفسه لما قبل منه . وكذلك الولد لو أراد فداء والده بنفسه لم يتقبل منه . ثم عاد بالموعظة عليهم بقوله : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾ : أى : لا تلهينكم بالطمأنينة فيها عن الدار الآخرة ﴿ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُودُ ﴾ : يعنى : الشيطان . قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وقتادة . فإنه يغر ابن آدم ويعدّه ويمنيه ، وليس من ذلك شيء ، بل كما قال تعالى : ﴿ يَهْدُهُمْ وَيُضِلُّهُمْ وَمَا يَهْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١٢٠] .

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿ [النساء : ١٢٠] ﴾

هذه مفاتيح الغيب التى استأثر الله تعالى بعلمها ، فلا يعلمها أحد إلا بعد إعلامه تعالى بها ؛ فعلم وقت الساعة لا يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب ﴿ لَا يَجْلِبُهَا لُوقُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الاعراف : ١٨٧] ، وكذلك إنزال الغيث لا يعلمه إلا الله ، ولكن إذا أمر به علمته الملائكة الموكلون بذلك ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا يعلم ما فى الأرحام مما يريد أن يخلقه تعالى سواء ، ولكن إذا أمر بكونه ذكراً أو أنثى ، أو شقياً أو سعيداً علم الملائكة الموكلون بذلك ، ومن شاء الله من خلقه . وكذلك لا تدرى نفس ماذا تكسب غداً فى دنياها وأخرها ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فى بلدها أو غيره من أى بلاد الله كان ، لا يعلم لاحد بذلك . وهذه شبيهة بقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الآية [الانعام : ٥٩] . وقد وردت السنة بتسمية هذه الخمس : مفاتيح الغيب . روى الإمام أحمد عن أبى بريدة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خمس لا يعلمهن إلا الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ مَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . هذا حديث

صحيح الإسناد ، ولم يخرجوه (١) . وروى الإمام أحمد عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ :
 « مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » . انفرد بإخراجه البخارى (٢) .
 ورواه من وجه آخر عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « مفاتيح الغيب خمس » . ثم
 قرأ : « ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ » ، انفرد به أيضا (٣) . وروى الإمام
 أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال : أوتى نبيكم ﷺ مفاتيح كل شيء غير خمس : « ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ
 عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ
 خَبِيرٌ ﴾ » (٤) .

وروى البخارى عن أبى هريرة ، أن رسول الله ﷺ كان يوما باروا للناس ، إذ أتاه رجل يمشى ،
 فقال : يا رسول الله ، ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه ،
 وتؤمن بالبعث الآخر » . قال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟ قال : « الإسلام : أن تعبد الله ولا تشرك به
 شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة المفروضة ، وتصوم رمضان » . فقال : يا رسول الله ، ما الإحسان ؟
 قال : « الإحسان : أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، متى
 الساعة ؟ قال : « ما المسؤول عنها بأعلم من السائل ، ولكن سأحدثك عن أشراطها : إذا ولدت الأمة
 رببتها ، فذاك من أشراطها . وإذا كان الحفاة العرأة رؤوس الناس ، فذاك من أشراطها ، فى خمس لا
 يعلمهن إلا الله : « ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ ﴾ » الآية ، ثم انصرف الرجل
 فقال : « ردوه على » . فأخذوا ليردوه ، فلم يروا شيئا ، فقال : « هذا جبريل ، جاء ليعلم الناس
 دينهم » (٥) . ورواه البخارى ومسلم (٦) .

وروى الإمام أحمد عن عبد الله بن عباس قال : جلس رسول الله ﷺ مجلسا له ، فاتاه جبريل
 فجلس بين يدي رسول الله ﷺ واضعاً كفيه على ركبتي النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ما الإسلام ؟
 قال رسول الله ﷺ : « الإسلام : أن تسلم وجهك لله عز وجل ، وتشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
 شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد أسلمت ؟ قال : « إذا فعلت ذلك
 فقد أسلمت » . قال : يا رسول الله ، فحدثنى ما الإيمان ؟ قال : « الإيمان : أن تؤمن بالله ، واليوم
 الآخر ، والملائكة ، والكتاب ، والنبين ، وتؤمن بالموت ، وبالحياة بعد الموت ، وتؤمن بالجنة والنار ،
 والحساب والميزان ، وتؤمن بالقدر كله خيره وشره » . قال : فإذا فعلت ذلك فقد آمنت ؟ قال : « إذا
 فعلت ذلك فقد آمنت » . قال : يا رسول الله ، حدثنى ما الإحسان ؟ قال رسول الله ﷺ : « الإحسان :
 أن تعمل لله كأنك تراه ، فإن كنت لا تراه فإنه يراك » . قال : يا رسول الله ، فحدثنى متى الساعة ؟
 قال رسول الله ﷺ : « سبحان الله . فى خمس لا يعلمهن إلا هو : « ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ
 الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ » ، ولكن

(١) المسند (٥ / ٣٥٣) وقال الهيثمى فى التروائد (٧ / ٩٣) : « رجال أحمد رجال الصحيح » .

(٢) المسند (٤٧٦٦) والبخارى (١٠٣٥) .

(٣) البخارى (٤٦٩٧) .

(٤) المسند (٣٦٥٩) وقال الشيخ أحمد شاکر : « إسناده صحيح » .

(٥) البخارى (٤٧٧٧) .

(٦) البخارى (٥٠) ومسلم (٥ / ٩) .

إن شئت حدثتك بمعالم لها دون ذلك ؟ » . قال : أجل ، يا رسول الله ، فحدثني . قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيت الأمة ولدت ربّتها - أو : ربها - ورأيت أصحاب الشاء يتطاولون في البنيان ، ورأيت الحفاة الجياع العالة كانوا رؤوس الناس ، فذلك من معالم الساعة وأساطها » . قال : يا رسول الله ، ومن أصحاب الشاء والحفاة الجياع العالة؟ قال : « العرب » (١) .

وروى الإمام أحمد عن رجل من بني عامر ؛ أنه استأذن على النبي ﷺ فقال : أليح ؟ فقال النبي ﷺ لحادمه : « أخرجني إليه ، فإنه لا يحسن الاستئذان فقول لي : قليل : « السلام عليكم ، أدخل ؟ » قال : فسمعتُه يقول ذلك ، فقلت : السلام عليكم ، أدخل ؟ فأذن ، فدخلت ، فقلت : بم أتينا به ؟ قال : « لم آتكم إلا بخير ، أتيتكم أن تعبدوا الله وحده لا شريك له ، وأن تدعوا اللات والعزى ، وأن تصلوا بالليل والنهار خمس صلوات ؛ وأن تصوموا من السنة شهراً ، وأن تحجوا البيت ، وأن تأخذوا الزكاة من مال أغنيائكم فتردوها على فقرائكم » . قال : فقال : فهل بقي من العلم شيء لا تعلمه ؟ قال : « قد علم الله عز وجل خيراً ، وإن من العلم ما لا يعلمه إلا الله عز وجل : الخمس : ﴿ إن الله عدّه علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير ﴾ » (٢) . وهذا إسناد صحيح .

وقوله : ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ قال قتادة : أشياء استأثر الله بهن ، فلم يُطلع عليهن . ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا : ﴿ إن الله عدّه علم الساعة ﴾ فلا يدري أحد من الناس متى تقوم الساعة ، في أي سنة أو في أي شهر ، أو ليل أو نهار ، ﴿ وينزل الغيث ﴾ فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث ، ليلاً أو نهاراً ﴿ ويعلم ما في الأرحام ﴾ فلا يعلم أحد ما في الأرحام ، أذكر أم أنثى ، أحمر أو أسود ، وما هو ﴿ وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ﴾ أخير أم شر ، ولا تدري يا بن آدم متى تموت ؟ لعلك الميت غدا ، لعلك المصاب غدا ﴿ وما تدري نفس بأي أرض تموت ﴾ ليس أحد من الناس يدري أين مضجعه من الأرض ، أفي بحر أم بر ، أو سهل أو جبل ؟ عن أسامة بن زيد قال : قال رسول الله ﷺ : « ما جعل الله منية عبد بأرض إلا جعل له فيها حاجة » (٣) . وروى الإمام أحمد عن أبي عزة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أراد الله قبض روح عبد بأرض جعل له فيها - أو قال : بها - حاجة » . وأخرجه الترمذى وقال : صحيح (٤) . وروى ابن ماجه عن عمر بن على (٥) مرفوعاً : « إذا كان أجل أحدكم بأرض أو ثبته إليها حاجة ، فإذا بلغ أقصى أثره ، قبضه الله عز وجل ، فتقول الأرض يوم القيامة : رب ، هذا ما أودعته » (٦) .

(١) المسند (٢٩٢٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : «إسناده صحيح» .

(٢) المسند (٥ / ٣٦٨) .

(٣) الطبراني المعجم الكبير (١ / ١٧٨) (٤٦١) وقال الهيثمي في المجمع (٧ / ١٩٩) ، «ورجاله رجال الصحيح» .

(٤) المسند (٣ / ٤٢٩) والترمذى (٢١٤٧) .

(٥) في المطبوعة والمخطوطة : «عمر بن عكرمة» والصواب ما أثبتناه من ابن ماجه .

(٦) ابن ماجه (٤٢٦٣) وفي الزوائد للبوصيري : «هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات» وصححه الألباني .